مجلـــة العلـــوم التربـــوية والدراســـات الإنســـانيـــة
Humanities and Educational Sciences Journal
ISSN: 2709-0302 (online)
ISSN: 2617-5908 (print)

وادي القرى في شعر العذريين في العصر الأموي(*)

د/ عادل حماد القاسمي البلوي
أستاذ مشارك تخصص دراسات أدبية
الكلية الجامعية بالوجه جامعة تبوك
قسم العلوم الأساسية

*) تاريخ تسليم البحث 4/2/2025 تاريخ قبوله للنشر 19/3/2025
*) موقع المجلة: http://hesj.org/ojs/index.php/hesj/index

وادي القرى في شعر العذريين في العصر الأموي

د/ عادل حماد القاسمي البلوي
أستاذ مشارك تخصص دراسات أدبية
الكلية الجامعية بالوجه جامعة تبوك
قسم العلوم الأساسية

الملخص

يهدف هذا البحث إلى دراسة وادي القرى (المكان) عند الشعراء العذريين في العصر الأموي، وارتباط الشعراء به، وبخاصة أنه يمثل مسقط رأس بعضهم، أو موطن إقامته، وفيه تعيش المحبوبة؛ فيحب المكان لذلك، ولقد ارتبط العربي عمومًا، وشعراء بني عذرة خصوصًا بوادي القرى وبالمكان، حتى إننا نجد جُلَّ شعراء العرب منذ العهد الجاهلي وحتى وقت قريب يستهلون قصائدهم بذكر الديار والبكاء على الأطلال، فللمكان دلالة خاصة عند شعراء العذريين يتمثل عندهم في الحنين والشوق للمحبوبة، والحزن والألم على فراقها، وهو الملاذ للشاعر من غربته المادية والمعنوية والنفسية، وتكشف لنا النصوص الشعرية التي بين أيدينا تشبث الشاعر بالمكان، كما يحاول هذا البحث تسليط الضوء على وادي القري عند العذريين، وجاءت مكونة من مقدمة وتمهيد ومبحثين وخاتمة، وقد ضمت الخاتمة بعض النتائج، ومنها:

- شغل المكان حيزًا في الشعر العذري في العصر الأموي حتى أصبح عنصرًا فاعلًا فيه.
- استطاع الشاعر العذري أن يطوّع المكان تبعًا لحالته النفسية.
- جعل الشاعر العذري وادي القرى محراب تأمل في تقلبات الحياة، وفناء أهلها.
- كشف لنا البحث عن ظاهرة مهمة عند العذريين وهي التنوع في إيراد أماكن الطبيعة بدلالاتها المختلفة من أشجار وبحار وصحراء وأودية ومياه.

الكلمات المفتاحية: وادي القرى، شعراء، العذريين، العصر الأموي، المكان.

Wadi Al-Qura in the Poetry of the ‘Udhrī Poets during the Umayyad Era

Dr. Adel Hammad Al-Qasimi Al-Balawi
Associate Professor of Literary Studies
Al-Wajh University College, University of Tabuk
Department of Basic Sciences

Abstract

This study explores the significance of *Wadi Al-Qurā* as a geographic and emotional space in the poetry of the ʿUdhri poets during the Umayyad period. The poets’ strong attachment to this region stems from its role as their birthplace, residence, or the dwelling place of the beloved, which imbues the place with emotional resonance. The Arab poetic tradition—particularly among the ʿUdhri poets—is deeply rooted in the evocation of place, as evidenced by the frequent opening of poems with references to deserted dwellings and lamentation over ruins, a convention that persisted from the pre-Islamic era well into later periods.

For the ʿUdhri poets, *Wadi Al-Qurā* symbolizes longing, nostalgia, and emotional refuge from both physical and existential estrangement. The poetic texts analyzed in this study reveal the poet’s deep connection to place, reflecting his inner emotional landscape. The research aims to shed light on the multifaceted representation of *Wadi Al-Qurā* in ʿUdhri poetry. The study is organized into an introduction, a prelude, two main chapters, and a conclusion. The key findings include:

- The concept of place occupies a prominent role in ʿUdhri poetry during the Umayyad era, functioning as an essential thematic element.
- The ʿUdhri poet effectively manipulates spatial imagery to mirror his psychological and emotional states.
- *Wadi Al-Qurā* serves as a contemplative sanctuary, allowing the poet to meditate on life’s transience and human mortality.
- The study uncovers a notable phenomenon among the ʿUdhri poets: the diverse and symbolically rich use of natural landscapes—trees, seas, deserts, valleys, and bodies of water.

Keywords: *Wadi Al-Qurā*, ʿUdhri poets, Umayyad period, Arabic poetry, place and space.

مقدمة البحث:

لا شك أن صورة المكان بالنسبة للإنسان تشكل علامة مميزة وفارقة في حياته، فالمكان في مسيرة أي إنسان هو وطنه وحياته الأولى، ومما له دلالة على ارتباط الإنسان بالمكان أو قل: الوطن ما رواه عبداللَّهِ بْنِ عَدِيِّ ابن الْحَمْرَاءِ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ يَقُولُ وَهُوَ وَاقِفٌ بِالْحَزْوَرَةِ فِي سُوقِ مَكَّةَ: "وَاللَّهِ إِنَّكِ لَخَيْرُ أَرْضِ اللَّهِ، وَأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ، وَلَوْلَا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكِ مَا خَرَجْتُ"(١)، ومن ثم فالانتماء للمكان أمر معروف عند كافة البشر أكده النبي ﷺ في هذا الحديث الشريف، وغيره من الأحاديث الأخرى.

وقد حظي المكان في تراثنا العربي باهتمام كبير لدى الشعراء والأدباء ونقاد الأدب؛ لأنه يملك تأثيرًا مباشرًا في نفس الشاعر والأديب، فهو جزء لا يتجزأ من حياته طفلًا فشابًا فكهلًا ثم شيخًا، فالمكان من الأسباب المهمة التي تدفع الشاعر للتعبير عما يشغله من عواطف وأحاسيس وأفكار، وقد أكدت بعض الدراسات السابقة العلاقة بين المكان والإنسان عامة، وبينه وبين الشاعر بصفة خاصة، فالشاعر يستطيع التخلص من القيود المادية للمكان؛ ليحلق في فضائه الدلالي وعالمه الخاص؛ لذا نال المكان في الشعر العربي عمومًا، والشعر العذري خصوصًا منزلة فنية معبرة، لا يمكن إغفالها لدى دارسي الأدب العربي ومؤرخيه.

وتكشف لنا النصوص الشعرية التي بين أيدينا اهتمام الشعراء العذريين بوادي القرى، وعنوا به عناية فائقة، بوصفه مكان النشأة وميلاد علاقة حبهم واستحضارها إذا حرموا منها، فلا يستطيع الشاعر مغادرته، وإذا أجبر على تركه حن إليه، وبكى لفراقه، وتغنى بجماله، وربما يسعده حظه فيعود إليه بعد طول انتظار، فيلقى المكان فرحًا منشدًا، باحثًا عن المحبوبة ودارها، ويذرف العبرات على أطلالها؛ لأن رؤية المكان بعد فراق المحبوبة له يعمق الجراح لدى الشاعر، فيزداد الوضع تعقيدًا وتأزمًا لديه.

موضوع البحث:

وادي القرى في شعر العذريين في العصر الأموي، وهو موضوع يندرج ضمن الدراسات الجمالية للمكان أو الزمان في الأدب عمومًا والأدب العربي خصوصًا، وقد سعيت في هذا البحث للإجابة عن عدة تساؤلات، أهمها:

- ما دلالات الطبيعة عند شعراء وادي القرى، في العصر الأموي؟
- ما المكان المفضل عند الشعراء العذريين في وصف العلاقة بين الشاعر ومحبوبته؟
- كيف تشكلت المكانية عند الشعراء العذريين في وادي القرى؟

أهمية البحث:

تكمن أهمية هذا البحث فيما يلي:

كونه يتناول وادي القرى عند الشعراء العذريين من حيث أبعاده ودلالاته، وأهميته في التحول من عنصر تأثيري واقعي في حياة الشاعر بوصفه إنسانًا إلى عنصر جمالي، فالمكان عندهم لم يعد يحمل بعدًا جغرافيًّا فحسب، بل أصبح يحمل أشكالًا متعددة ظهرت في دواوين الشعراء موضوع البحث.

(١) سنن الترمذي، أبواب المناقب، باب فضل مكة، حديث رقم: (٣٩٢٥)، وسنن ابن ماجة، كتاب المناسك، باب فضل مكة، حديث رقم: (٣١٠٨).

أهداف البحث:

لقد سعيت في هذا البحث إلى تحقيق جملة من الأهداف، من أهمها ما يلي:

١- الوقوف على أبعاد المكان ودلالاته في وادي القرى؛ لأن المكان رافدٌ مهم للأدب والأدباء، وذلك لارتباطه الوثيق بالإنسان وتجاربه.

٢- بيان دور وادي القرى وطبيعته المكانية في تشكل المكونات الدلالية والتصويرية في العمل الشعري.

٣- الكشف عن المكان المفضل لدى الشاعر العذري في وصف العلاقة بين الشاعر ومحبوبته.

منهج البحث:

اعتمد البحث على المنهج الوصفي التحليلي، حيث قمت باستقصاء النصوص، وتحليل جوانبها الفنية.

الدراسات السابقة:

لقد سبقت هذا البحث بحوث ورسائل كثيرة قمت بالإفادة منها إفادة الباحث الذي مهمته البحث والتعلم، ومن بينها:

- المكان والزمان عند الشعراء العذريين، مجنون ليلى، جميل بثينة، كثير غزة، نموذجًا، ودناني بوداد، رسالة ماجستير، معهد اللغة العربية والأدب العربي، جامعة وهران، عام (١٩٩٣م).
- الشعر العذري في ضوء النقد الحديث، لمحمد بلوحي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، عام (٢٠٠٠م).
- المكان عند شعراء الغزل العذري في العصر الأموي، بشائر أمير عبد السادة الفتلاوي، ماجستير في آداب اللغة العربية، كلية التربية، جامعة بابل، عام (١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م).
- المكان في الشعر الأموي، جميل بدوي حمد الزهيري، رسالة دكتوراه، كلية التربية، الجامعة المستنصرية، عام (١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م).
- المكان عند العذريين في العصر الأموي، حامد المشيخي، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة اليرموك، الأردن، عام (٢٠٠٧م).
- دلالة المكان في الشعر الأموي "شعر قيس بن الملوح أنموذجًا" محمد فتحي الأعصر، الكوفة، مجلة فصلية محكمة، ع(١١)، عام (٢٠١٧م).

ولا بد من الإشارة إلى أنه رغم تلك الدراسات وغيرها إلا أنني لم أجد دراسة أو بحثًا يتحدث عن وادي القرى عند الشعراء العذريين، ولكنه حديث عن الغزل العذري أو عن المكان، وكل ما تذكره تلك الدراسات هي عبارات بسيطة عن وادي القرى، ولا نريد أن نقلل من أهميتها إلا أنها لم تكن الركيزة الرئيسة التي بنيت عليها البحث، ولكن رجعت إليها واستفدت من بعضها باعتبارها نواة بنيت عليها، واستعنت ببعض عناصرها.

وقد اقتض طبيعة البحث أن يُقسم البحث إلى: مقدمة وتمهيد وخاتمة.

التمهيد: تناولت فيه: تعريف موجز بوادي القرى حتى العصر الأموي.

المبحث الأول: الطبيعة ودلالتها عند شعراء وادي القرى، في العصر الأموي، وجاء في ثلاثة مطالب، وهي ما يلي:

المطلب الأول: الأرض ودلالاتها عند شعراء وادي القرى.

المطلب الثاني: المياه العذبة والعيون والوديان الخصبة والبحار في شعرهم.

المطلب الثالث: أشكال الطبيعة ودلالتها عند شعراء وادي القرى.

المبحث الثاني: المكان المفضل عند العذريين في العصر الأموي، وجاء في ثلاثة مطالب، وهي ما يلي:

المطلب الأول: مكان ميلاد العلاقة بين الشاعر ومحبوبته.

المطلب الثاني: مكان استحضار العلاقة (الأطلال).

المطلب الثالث: المكان الحلم (المتمنى).

الخاتمة: وفيها استخلاص أهم نتائج البحث.

المصادر والمراجع.

تمهيد: تعريف موجز بوادي القرى حتى العصر الأموي

وادي القرى يضم أودية عديدة في المنطقة المسماة حاليًا بمحافظة العلا، وترجح أن هذه التسمية تعود إلى كثرة القرى في هذا الوادي؛ والوادي من أوله إلى آخره قرى منتظمة، وقيل أنها مجموعة قرى بين محافظة خيبر ومحافظة تيماء، وقد اشتهر هذا الاسم في العصر الجاهلي وبداية العصر الإسلامي، وهو وادٍ يمتاز بخصوبة أرضه ووفرة مياهه، وجمال طبيعته، الذي أدى إلى كثرة ساكنيه، وبلوغهم درجة كبيرة من التحضر والرقي، وممكن تحديد الوادي حاليًا بأنه يقع في الجزء الشمالي الغربي من المملكة العربية السعودية شمالي المدينة المنورة وتبعد عنها مسافة (٣٧٠) كم، وإلى الجنوب من تبوك، بما يقرب من (٤٨٣) كم، وعن حائل (٤١٦) كم غربًا، وذلك عن طريق الجهراء وتيماء، فهي إذًا تنتمي إلى هضبة الحجاز إحدى الهضاب الغربية التي تشكل إحدى الوحدات التضاريسية الكبرى للمملكة العربية السعودية حاليًا[١].

وقد تغنى الشعراء بالوادي، ولمَ لا وهو موطن الشعراء العذريين في العصر الأموي، قال القاضي أبو يعلى عبد الباقي ابن أبي الحصين المعرّي[٢]:

لقد كذب النوم فيما استقل ... بشخصك في مقلتي وافترى

وكيف وداري بأرض الشآم ... ودارك أرض بوادي القرى؟

ويقول جميل بن معمر العذري في وادي القرى الذي يتمنى البيات به ليحس بالسعادة [٣]:

أَلا لَيتَ شِعري هَل أَبيتَنَّ لَيلَةً ... بِوادي القُرى إِنّي إِذَن لَسَعيدُ

---

(١) وادي القرى من الجاهلية إلى العصر النبوي، دويدار، مصطفى، دار الوفاء للطباعة والنشر: الإسكندرية (٢٠٢٤م)، ص٨، انظر الموقع الإلكتروني للهيئة الملكية لمحافظة العلا، نبذة عن العلا. انظر، تاريخ وادي القرى في صدر الإسلام، البلوي، حمد منصور أبو شامة، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية عمان، (٢٠١٠م)، ص١٦.

(٢) الوافي بالوفيات، الصفدي، المحقق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث: بيروت، عام النشر:(١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م)، ١٥/١٨.

(٣) ديوان جميل، شعر الحب العذري، جمع وتحقيق وشرح: دكتور حسين نصار، مكتبة مصر، دار مصر للطباعة: ص٦٥.

وقد نسب إلى وادي القرى جماعة، منهم: يحيى بن أبي عبيدة الواديّ، أصله من وادي القرى، واسمه يحيى بن رجاء بن مغيث مولى قريش ثقة في الحديث، وعمر بن داود بن زاذان مولى سيدنا عثمان بن عفّان – رضي الله عنه – المعروف بعمر الواديّ المغني، وهو أستاذ حكم الوادي"(١).

وفي العهد الأموي كان وادي القرى مكانًا مهمًا؛ لوقوعه في منتصف المسافة بين مكة المكرمة ودمشق عاصمة الخلافة، وعلى طريق الحاج الشامي، وقد ظهر في هذا الوادي شعراء عذريين تميزوا بشعرهم العذب الرقيق، وغزلهم العفيف، منهم عروة بن حزام، الذي يُحكى عن قصته مع ابنة عمه عفراء بأنها أكثر ملامح شعر الغزل العذري في العهد الأموي، فقد أخبرنا الزبير بن بكار، أخبرنا أبي قال: قال عروة بن الزبير: مررت بوادي القرى فقيل لي: هل لك في عروة بن حزام؟ فقلت: الذي يلقى من الحب ما يلقى؟ قالوا: نعم! فخرجت حتى جئته، فإذا هو في بيت منفرد عن البيوت، وإذا والله حوله أخوات له أمثال التماثيل وأمه وخالته، قال: فقلت له: أنت عروة؟ قال: نعم! قلت: صاحب عفراء؟ قال: صاحب عفراء، ثم استوى قاعدًا فقال: وأنا الذي أقول(٢):

جَعَلْتُ لِعرَّافِ اليمَامةِ حُكْمَهُ وعرّافِ حَجْرَ إنْ هما شَفيانِي

ثم التفت إلى أخواته فقال(٣):

مَنْ كانَ من أُمّهَاتِي بَاكِيًا أبَدًا فَالآن إنِي أُرَاكَ اليَوْمَ مَقْبُوضَا

قال عروة بن الزبير: فلما سمعن قوله برزن والله يضربن حر الوجوه، ويشقن جيوبهن، قال عروة: فقمت، فما وصلت إلى منزلي حتى لحقني رجل فأخبرني أنه مات.

ويتحدث جميل بن معمر عن جزء من وادي القرى وهو الحِجرُ، وهو اسم ديار ثمود بوادي القرى بين المدينة والشام، فيقول(٤):

أَقولُ لِداعي الحُبِّ وَالحِجرُ بَينَنا وَوادي القُرى: لَبَّيكَ لَمّا دَعانِيا

وَعاوَدتُ مِن خِلٍّ قَديمٍ صَبابَتي وَأَظهَرتُ مِن وَجدي الَّذي كانَ خافِيا

قال الإصطخري: "الحجر قرية صغيرة قليلة السّكّان وهي من وادي القرى على يوم بين جبال، وبها كانت ديار ثمود الّذين قال الله فيهم: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ﴾(٥)، ورأيت تلك الجبال، ونحتهم الّذين قال الله فيهم: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾(٦)، ورأيتها بيوتًا مثل بيوتنا في أضعاف جبال، وتسمّى تلك الجبال الأثالب، وهي جبال في العيان متّصلة "(٧).

---

(١) ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر: بيروت، ١٤٤/٤.

(٢) ديوان عروة بن حزام، تحقيق: دكتور إبراهيم السامرائي، وأحمد مطلوب، الناشر: مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، ع٤، حزيران (١٩٦١م)، ص١٤، مصارع العشاق: ٣١٦/١.

(٣) ديوان عروة، ص٣٦، ومصارع العشاق، ٣١٦/١.

(٤) ديوان جميل بثينة، ص٢٢١.

(٥) سورة الفجر، [آية: ٩].

(٦) سورة الشعراء، [آية: ١٤٩].

(٧) المسالك والممالك، أو مسالك الممالك، للإصطخري، دار صادر: بيروت، عام النشر (٢٠٠٤م)، ص١٩.

المبحث الأول: الطبيعة ودلالتها عند شعراء وادي القرى

تعد الأماكن الطبيعية في حياة الشعراء العذريين متنوعة لتنوع الطبيعة في وادي القرى، التي استعان بها الشعراء في غير موضع من دواوينهم، ربما لأنها تحمل في طياتها شعورًا بالراحة والاستنباط والهدوء الذي توفره الطبيعة عند لجوء الإنسان إليها بما تحمل من ملامح الألفة والبهجة والخصب والانفتاح والتجدد والنماء، مما يصاحب ذلك شعورٌ بالأمان؛ لذلك كانت الأماكن الطبيعية ميدانًا خصبًا لحمل أفكار الشاعر ومضامينه(١).

المطلب الأول: الأرض ودلالاتها عند شعراء وادي القرى

نجد تعلق الشاعر العذري بأرضه في وادي القرى أمر جلي في شعره لأنها ديار المحبوبة، لذلك نجده يتعلق بالأرض وترابها وجبالها وقفارها وهضابها، وكان السبب وراء اهتمام الشاعر العذري بتلك الأماكن؛ هو تنقلهم وراء المحبوبة ومحاولة لقائها، بعد أن حرمه منها أهلها، ولينجز الشاعر وعده كان يتنقل بين القرى، ويصعد الجبال، ويمر بالهضاب، فارتبط شعرهم بتلك الأماكن، التي شاركتهم أفراحهم وأتراحهم.

يقول جميل بثينة(٢):

وَأَهْوَى الْأَرْضَ عِنْدِي حَيْثُ حَلَّتْ بِجَدْبٍ فِي المَنَازِلِ أَوْ خَصِيبِ

يبرز الشاعر هنا قيمة الأرض وارتباطها بمن يسكنها، فالمكان يكسب أهميته وجماله من ساكنه، فبثينة هي من جعلت للمكان هذا الحضور الجميل، لأن جدب الأرض أو خصوبتها لا يعنيه مادامت المحبوبة ساكنة بهذا المكان، فحضورها حياة للمكان،" فالشاعر يشعر بالأمان والسكون والهدوء النفسي، حينما يحس أن ذلك المكان يوحي له بالسلام مع من يحب"(٣)

ويتحدث مجنون ليلى عن شدة ارتباطه بليلاه، وبمكان تواجدها مؤكدًا ما ذكره جميل من ارتباط الشاعر العذري بأرض المحبوبة، فيقول(٤):

إذا سِرتُ في الأَرضِ الفَضاءِ رَأَيتُني أُصانِعُ رَحلي أَن يَميلَ حِيالِيَا

يَمينًا إذا كانَت يَمينًا، وَإِن تَكُن شِمالًا يُنازِعنِي الهَوى عَن شِمالِيَا

إن شغف الشاعر بليلى قد بلغ مداه، ففي سيره بالأرض الفضاء الخالية، يصانع راحلته بالشوق لمحبوبته، التي أثرت على عاطفته وهواه، يميل يمنة إذا كانت هي بالجهة اليمنى، ويميل شمالًا إن كانت ليلى في جهة الشمال، فالمكان صار جزءًا لا يتجزأ من عاطفة قيس، فيظهر له بين جنباته، لا يفارقه.

---

(١) شعرية المكان في شعر الأخطل، دكتورة: نهى محمد عمر، مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية، العراق، ١٦(١٠)، تشرين الأول عام (٢٠٠٩م)، ص٦.

(٢) ديوان جميل بثينة، ص٣٥.

(٣) انظر، جماليات المكان، غاستون باشلار، ترجمة غالب هلسا، ط٢، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع: بيروت، لبنان، عام (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م)، ص٣٢.

(٤) ديوان مجنون ليلى، جمع وتحقيق وشرح: عبد الستار أحمد فراج، مكتبة مصر: ص٢٢٩.

أما مجنون ليلى عندما أبت ليلى أن تلبي طلبه قام يقبل الأرض تحت قدميها قائلًا[١]:

أَبــــــوسُ تُرابَ رِجلَـكِ يا لِوَيلـــــي ... وَلَـــــولا ذاكَ لا أُدعـــــى مُصابـــــا

وَمـا بَـــــوسِ الـتُرابِ لِحُـبِّ أَرضٍ ... وَلَكِن حُبُّ مَـــن وَطِـــئَ التُـــــرابَ

وَلازَمـــــــتُ القِفـــــارَ بِكُـــلِّ أَرضٍ ... وَعَيشـــــــــي بِالوُحـــــوشِ نَما وَطابا

فتكرار مفردتي (التراب – الأرض) ثلاث مرات في تلك المقطوعة يؤكد على حب الشاعر لليلى، وعشقه لها، وكذلك الارتباط بأرض محبوبته، كما استعان قيس أيضًا بلفظتي (نما – طابا) لدلالة استمرارية العيش في (القفار)، ولحبه لها فهو ملازم لتلك البيئة، إذ وجد فيها ذاته التي ربما أحس بضياعها حين ضاعت منه ليلى.

ويتحدث جميل بثينة عن معاناة المحب للقاء محبوبته عند جبل ذي الغلالة، في وادي القرى، فيقول[٢]:

فَلَمـــا طَلَعـــنَ ذا الغِـلالَـــةَ وانتَحـــت ... بِهـــتَّ الحُـــداةُ في خَـــوِيٍّ لَـــه سَهـــلُ

وَلَمـــا بَـــدا هَضـــبُ المِجَزِّ وأَعرَضَـــت ... شَمـــــــاريخُ من شَرعـــان يُرْدَى بِها الوعلُ

والمجز: وادٍ يفلق بين الصمد والصوَّان، ويعرف بالمحز، وهو جبل لا يزال معروفًا شرق العُلا، وشرعان: جبل أحمر، وقد وصف جميل هذه الأماكن وصفًا واضحًا معبرًا عنها بصدق وواقعية، فهي جبال عالية، لها شماريخ، حتى الوعول لا تستقر عليها، ليصف معاناته في هذه الطبيعة القاسية لرؤية محبوبته،" فقد اتخذ الشاعر العذري من هذا المكان/ الجبل رمزًا يعبر من خلاله عن حياته النفسية المأزمة، وهو موطن الذكريات ومكان الأمومة والطمأنينة النفسية"[٣].

ويحن مجنون ليلى إلى الماضي، الذي كان فيه بقرب محبوبته، التي يذكر فيها جبل الرضم في قوله[٤]:

ولكـــــنّ أيـــامـــي بحقْـــلِ عُنـيـــزةٍ ... وبالرَّضْـــــــــــم أيـــــامٌ جَناها التجاوُرُ

وجاء في لسان العرب: الرضم والرضام صخور عظام يرضم بعضها فوق بعض في الأبنية[٥].

ومن زاوية أخرى يصف شعراء وادي القرى لنا الأرض وتنوع أشكالها، منها الرمل الناعم السهل ومنها الأرض الصعبة الوعرة، فيصفون تلك الأماكن ويوضحون أثرها عليهم، يقول جميل بثينة[٦]:

بِـنـفسِـــي فَـلا تـقـطـعْ فـؤادَك ضِـــلَـةً ... كـذلـكَ حَـزنِي وَعـثُـهـا وصـــعُـودهُـا

---

(١) ديوان مجنون ليلى، ص٦٦.

(٢) التعليقات والنوادر، لأبي علي هارون بن زكريا الهَجَري، تحقيق ودراسة ومختارات: حمد الجاسر، ط١، عام (١٤١٣هـ/١٩٩٢م)، ص٣٤١، يتميز جبل الغلالة الذي يقع ما بين محافظة العلا، ومحافظة تيماء التي يتبع لها إداريًا، بشكله الفريد وتركيبته العجيبة؛ حيث كان مستراحًا للمسافرين قديمًا، لاحتوائه على مجموعة من التجاويف، والغيران ولكل غار إطلالته الرائعة، وظلاله الوارفة، انظر صحيفة سبق الإلكترونية، ٩ من رجب (١٤٤٦هـ).

(٣) انظر، المكان عند شعراء الغزل العذري في العصر الأموي، بشائر أمير الفتلاوي، ص٤٦.

(٤) ديوان مجنون ليلى، ص٩٩.

(٥) لسان العرب، مادة (رضم).

(٦) ديوان جميل بثينة، ص٧٠، الحَزن: ضد السهل، والوعث: الطريق العسر.

ويحن جميل لبعض الأماكن والرمال والهضاب والآبار، وهو بعيد عن دياره في وادي القرى، عندما حل بمصر، لأنه يهوى الأرض التي تحل بها بثينة، فيقول(١):

أَشَاقَكَ عَالِجٌ فَإِلى الكَثِيبِ ... إلى الدارات مِن هِضَبِ القَلِيبِ(٢)

إذا حَلَّت بِمِصرَ وَحَلَّ أَهلي ... بِيَثرِبَ بَينَ آطامٍ وَلوبِ

فهو يحب أي مكان تكون فيه بثينة، سواء كان هذا المكان خصبًا أو مكانًا مجدبًا، فلا يحب المكان إلا لوجود بثينة فيه، فعندما تحل بثينة بمكان يصبح هذا هو المكان المحبب عند جميل، فقد كان يجاور مسكنها يبكي، ثم يسأل الديار عن بثينة فلا مجيب يرد عليه.

ويذكر لنا جميل بثينة طبيعة وادي شَلاّل بضيق مساره ووعورته بين الجبال الشاهقة من وادي القرى، ويؤكد أنه لولا محبوبته ما ورد هذا الوادي، وحمل ناقته تلك المشاق، وهذا يدل على المعاناة الصادقة الممتزجة بحرارة العاطفة، وتتجلى فيها خلجات النفس بتحميلها الصعاب من أجل من يُحب(٣):

فَلَولَا ابنَةُ العُذرِي لَمْ تَرَ نَاقَتِي ... شَلَّالَ ولَمْ أعسفْ بِهَا حيثُ أعسفُ

المطلب الثاني: المياه العذبة والعيون والأودية الخصبة والبحار، وأثرها في شعر العذريين

ترتبط المياه والأودية الخصبة ارتباطًا أبديًّا بالإنسان، فالمياه لها دور تاريخي في نشوء الحضارة واستقرار الإنسان، فخصوبة الأرض تجعل الموقع جاذب للاستيطان البشري لأنها صالحة للزراعة والرعي، وهذا مما يميز وادي القرى عن باقي الأماكن في جزيرة العرب.

فوجود المياه في الوادي من الأمور المذكورة في شعر العذريين وفي بيئتهم، ولا نجد شاعرًا إلا ويذكر، بعض من تلك الأودية والموارد في وادي القرى ومنها: مورد ملح: وهو على اليسار من وادي الغضا، وكان البدو يردونه، ويستمر إلى الصيف، ومورد القناعة: وهو الوادي الثاني بعد ملح، ويتميز بعدم انقطاع مياهه، ومورد أبي نمار، وهو بالحاطبة ولا يعتمد عليه كثيرًا، وبه غدير مطويٍ، ومورد الحفنة، والعذيب، وغيرها(٤)، وقد عشق الشعراء هذه الأودية، وتغنوا بها وبوادي القرى عمومًا، وبمعشوقاتهم خصوصًا.

فتعانق هذا الفضاء عند العذريين، وعبروا عن مدى حبهم لتلك الأماكن والحنين إليها لما لهم فيها من ذكريات جميلة، فمن موارد وادي القرى وادي قرح، فرغم ملوحة مائها وثقله، إلا أنها كانت موردًا يُعتمد عليه، وكان وادي قرح موطن قبيلة عذرة، وقد قال فيه جميل بثينة(٥):

---

(١) ديوان جميل بثينة، ص٣٥/٣٦.

(٢) عالج: موضع به رمل، القليب: البئر القديمة.

(٣) ديوان جميل بثينة، ١٣٨.

(٤) انظر، رسوم العشاق في وادي القرى، محمد سعيد المرواني، ط١، دار تكوين، جدة، عام (١٤٤٤هـ)، ص١٢٤.

(٥) ديوان جميل بثينة، ص٣٦، قرح: سوق وادي القرى، الورق الحمام، حماء: سوداء، العلاطين مثنى علاط، صفحة العنق.

وَيَـــــوْمَ وَرَدْنَـا قُـــــرْحَ هَاجَـتْ لِيَ الْبُكَا مِـــنَ الْـــوُرْقِ حَمَّـــاءُ الْعِلَاطَيْـــنِ تَصـــْدَحُ
وَيَـــــوْمَ وَرَدْنَـا الْحِجْـــرَ يَا بُثْـــنُ عَادَنِي لَـــكِ الشَّـــوْقُ حَتَّـــى كِـــدْتُ بِاسْمِكِ أُفْصِحُ
وَلَيْلَـــةَ بِتْنَـــــا بِالْجُنَيْنَـــــةِ هَـاجَنِـــي سَنَـــا بَـــارِقٍ مِـــنْ نَحْـوِ أَرْضِـكِ يَلْمَـــحُ

فجميل ينقل لمحبوبته ما يعانيه من هموم وذكريات في ذلك المكان التي مرّ به في الزمن الماضـــي، فالمكان وما يحويه من طبيعة يثير في نفس الشاعر الحزن والألم بسبب الفراق [١]، فصوت الورقاء بجانب مورد ماء قرح يُذكره بها، فيهيَّج له البكاء، والحجر جدد الشوق لديه وأزم حالته النفسية حتى كاد يفصح باسم محبوبته، وكذلك رؤيته لسنا البرق بأرض محبوبته أثار الشوق وجدده بحثًا عن اللقاء.

وذكر صـــاحـب معجم البلـدان: قرحي: بالفتح ثم الســـكون، والحـاء المهملـة، والقصـــر: جمع قريح: اسم موضع، عن ابن الأعرابي، يقال له ذو القرحى بوادي القرى، وأنشد[٢]:

إِذَا أخـــــذْتَ إبـــلًا مـــنْ تَغْـلـــــــب فلا تشـــــرقْ بهـــا ولكـــــن غـــــــرب
وبـــــــعْ بقرحى أو بحـــوضِ الثَّعـــلـــبِ وإنْ نسبـــــــتَ فانتســـــــبْ ثم أكـــذب

ويصف قيس بن الملوح مشاعر الحنين والحزن لفراق محبوبته، فحتى أماكن المياه لم تعد كما كانت، يقول[٣]:

أَلا لا أَرى وادي المِيـــــاهِ يُثـــيـــــبُ وَلا النَفسُ عَن وادي المِياهِ تَطيـــــبُ
أُحِـــبُّ هُبـــوطَ الواديَيـــــنِ وَإِنَّنـــي لَمُشتَهِـــــرٌ بِالوادِيَيـــــنِ غَريـــــبُ

فلم تعد الحياة تطيب للشاعر، فإحساسه بالغربة جعل الحياة متوقفة في عينيه، فقد أثار الوادي كوامن الشاعر وأحاسيسه، فقد كان للوادي دور في حياته، فهو يحمل في طياته جملة من الذكريات والخيالات التي عاشها في ظله يومًا ما[٤]، كما تتجلى ازدواجية العشق المكاني بالاغتراب النفسي العاطفي في البيت الثاني أيضًا، فارتبط مفهوم الواديين بوجود الماء، وهذا الارتباط يبدو في كلمة (أحب)، وهو فعل مضـــارع يدل على التجدد والاســـتمرار واستحضـار صـورة الذهاب للأودية التي تحفها المياه والخضرة من قبل الشـاعر، ولكنه صـار مغتربًا بها لتعلقه بهذه الأودية أيام لقائه مع ليلى، فبدا غريبًا بها بعد النعيم المقيم الذي كان يتخللها.

ومما يدل على شـــدة تعلق الشـــاعر العذري بالمكان، وارتباطه بالمحبوبة قول كثير عزة في العذيب وهو وادي يشتهر بوفرة الماء وعذوبته من أودية وادي القرى[٥]:

خـلـيـلـى إن أمّ الحَـكـيـمِ تَحـمـلـت واخـلـت لخَـيـمـاتِ الـعُـذيـبِ ظـلالهـا

(١) انظر، بين الأدب والموسيقى، أسعد محمد علي، دراسة مقارنة في الفن الروائي، ط١، أفاق عربية: (١٩٨٥م)، بغداد، ص١٢٠.
(٢) معجم البلدان، ٣٢١/٤.
(٣) ديوان مجنون ليلى، ص ٤٥.
(٤) الإنسان والمكان، دكتور ليث كريم حمد، مجلة ديالي، العراق، ع(٤٠)، عام (٢٠٠٩م)، بتصرف.
(٥) شرح ديوان كثير عزة، ص١٤٤.

ويذكر جميل اللابتين وهي الحرار التي تعلوها الحجارة السوداء الخشنة، وشوقه لوادي القرى والعيون الجارية ومحبوبته بثينة، يقول(١):

وما علوتُ اللابتين تشوقت قُلوبٌ إلى وادي القُرى وَعُيونُ

وتحدث جميل عن ليلة قضاها بالجُنينة والحجر قائلًا(٢):

ومحبوبته بثينة، يقول(٣):

وليلةٍ بِتنَا بالجُنينَةِ هَاجَنِي سنَا بَارِقٍ مِن نَحوِ أرْضِكِ يَلْمَحُ

وقد ذكرها ابن خرداذبه بقوله: فأمّا من دمشق إلى مكّة فالمنازل منها إلى ذات المنازل ثم سرغ ثم تبوك ثم المحدثة ثم الأقرع ثم الجنينة ثم الحجر ثم وادي القرى(٤).

والحديث عن المياه العذبة يرد كثيرًا عند شعراء وادي القرى، يصفون أنواعه وأماكنه، فحيث وجد الماء وجدت الحياة، فيرد الشاعر الماء ويتزود منه، ويستعين في ذلك بالدلو الكبيرة، حتى إذا اختلط هذا الماء ببول الإبل وتبعرها كدر، فيتركه الشاعر، ويأمر بتركه لعدم صفاء مائه، يقول جميل(٥):

رَدِ الماءَ ما جاءَت بِصَفوٍ ذَنائِبُه وَدَعهُ إذا خيضَت بِطَرقٍ مَشارِبُه

وهو ينتقل من ذكر الماء الصافي وورود إليه، وانصرافه عن الماء الذي كدرته الإبل، وقد وظف الشاعر عنصر الماء وجعله مقابلًا للحب؛ لأن الحب والماء يشتركان في صفة النقاء، ولكن الحالة التي يظهر فيها عنصر الماء في هذا المقام لا تشي بالنقاء، بل على العكس تمامًا.

ويصف جميل بعض مظاهر الطبيعة، فيخاطب بثينة، ويدعو لدارها بالمطر الذي يحمل الخير لأهل الحيّ، لأن المطر يجعل الأرض تتجدد وبه يتجدد حبهما، يقول(٦):

سَقى مَنزِلَينا يا بُثَينَ بِحاجِرٍ عَلى الهَجرِ مِنّا صَيِّفٌ وَرَبيعُ

وَدَورَكِ يا لَيلى وَإِن كُنَّ بَعدَنا بَلينَ بِلىً لَم تَبلَهُنَّ رُبوعُ

وَخَيماتِكِ اللاتي بِمُنعَرَجِ اللِوى لَقُمرِيِّها بِالمُشرِقِينَ سَجيعُ

فلا يتوقف هذا المطر في الصيف أو في الربيع فيذكر الصيف: ويريد به مطره، والربيع: ويريد به مطر الربيع، والهزيم: صوت الرعد، والرياح، ويذكر مواضع مثل: حاجر، ومنعرج اللوى، فقد شكل الماء حضورًا فاعلًا في شعر جميل بثينة، فالمطر يحمل معاني الحياة، والحب هو عبارة عن قلب نابض بالحياة، فقد عمد الشاعر هنا إلى انتقاء المعاني ونظمها في قالب لغوي؛ لتشكيل صورة للحبيبة ترتقي بها إلى الرفعة والسمو من جانب، ومن جانب آخر تبين مدى الحب والاهتمام الذي تحظى بهما في قلب الشاعر.

---

(٢) ديوان جميل، ص ٤٨.

(٤) المسالك والممالك، أبو القاسم ابن خُرداذبه، دار صادر: بيروت، ص١٩١

(٥) ديوان جميل، ص٣١.

(٦) ديوان جميل، ص١٢١-١٢٢.

ويبدو أن وادي القرى صار رمزًا للتقاء العشاق من الشعراء، فقد خلدوا ذكره في كثير من أشعارهم، وقد سار المجنون على درب غيره في توظيف هذا الوادي الخصب، فيستخدم لام التوكيد ليعبر عن صدق مشاعره، يقول(١):

لعمر أَبي ليلى لَئِن هِيَ أَصبَحت بوادي الْقرى مَا ضرّ غَيْرِي اغترابها

فقد أثار الوادي كوامن الشاعر وأحاسيسه، فهو عنده مكان له دور مهم في حياته، إذ حمل في طياته جملة من الذكريات والخيالات التي عاشها الشاعر في ظله يومًا ما.

ولم تخلُ تجربة شعراء وادي القرى ومعجمهم المكاني من الحديث عن البحر، وذكره في أشعارهم، يقول مجنون ليلى(٢):

وَمَا حَمَلَتْ أُنْثَى وَمَا خَبَّ ذِعْلِبٌ وَمَا طَفَحَ الْآذِيُّ فِي لُجَجِ الْبَحْرِ(٣)

فمهما تغير الطبيعة، ومهما حدث فحب قيس ثابت لا يتزعزع، فلو أسرعت به الناقة في سيرها، وأبعدته البحار بموجها لن ينسى ليلى.

فقد اقترن ذكر البحر في شعر المجنون بالعالم المجهول المتسع العميق، فيقول(٤):

أَلا زَعَمَت لَيلى بِأَن لا أُحِبُّها بَلى وَاللَيالي العَشرِ وَالشَفعِ وَالوَترِ

بَلى وَالَّذي لا يَعلَمُ الغَيبَ غَيرُهُ بِقُدرَتِهِ تَجري السَفائِنُ في البَحرِ

فالشاعر يكثر من استعمال القسم للتأكيد على صدق حبه تجاه ليلاه التي عشقها، وكانت سببًا في هيامه، وذهاب عقله، ومن فنائه للأبد، "ولهذا جاء البحر رمزًا للأهوال الصعبة التي لا يقدر عليها أحد غير الشاعر"(٥)، فالبحر مكان باعث لتضحية الشاعر إزاء محبوبته، وركوبه الأهوال والمخاطر في سبيلها.

المطلب الثالث: أشكال الطبيعة ودلالتها عند العذريين

لقد تغنى شعراء وادي القرى بالطبيعة، وعادوا إلى أحضانها البكر، فإذا تأملنا أشعار مجنون ليلى أو جميل بثينة أو غيرهما فسوف نرى صور الطبيعة البكر من الريح والطير والمطر والشجر والحيوان، فتجدهم هاموا بها احتفاء وغناء عبر تجاربهم الإبداعية، فيحن جميل لوادي القرى ويشتاق إليه وإلى حبيبته، فيقول(٦):

وَلَقَد أَجُرَّ الذَيلَ في وادِي القُرى نَشوانَ بَينَ مَزارِعٍ وَنَخيلِ

فيذكر المكان، بطبيعته الحضارية بوجود المزارع والنخيل، وهيئته بسحب ذيل ثوبه بتيهٍ وتبختر وانتشاء لأنه كان في ديار محبوبته قبل غربته.

---

(١) ديوان مجنون ليلى، ٥٥.

(٢) ديوان مجنون ليلى، ص١٧.

(٣) خب الفرس في عدوه: راوح بين يديه ورجليه، والذعلب، الناقة السريعة، شبهت بالذعلبة: وهي النعامة لسرعتها، والآذي، الموج.

(٤) ديوان مجنون ليلى، ص١٧.

(٥) شعرية المكان في شعر الأخطل، دكتورة: نهى محمد عمر، مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية، العراق، العدد (١٠) المجلد (١٦)، تشرين الأول عام (٢٠٠٩م)، ص٦٥.

(٦) ديوان جميل، ص١٨٤.

ومن الصور المكملة للمكان وجمالياته في وادي القرى الحديث عن الأشجار والنباتات الموجودة في هذا المكان حول الوديان والآبار، ومجرى السيول، فقد أستطاع الشاعر العذري أن يصف بيئته في شعره، يقول مجنون ليلى[١]:

وَعارَضـــــنَ بِالعِقيـــانِ كُـــلَّ مُفَلَّـــجٍ بِهِ الظَلَـــمُ لَـــم تُفلَل لَهُـــنَّ غُـــــــروبُ

رُضـــابٌ كَريحِ المِســـكِ يَحلو مُتـــــــونَهُ مِنَ الضَـــرو أَو فَرخِ البَشـــامِ قَضـــيـــبُ

فالضـــرو: نوع من الشـــجر طيب الريح، والبشـــام: شـــجر طيب الرائحة تتخذ عيدانه لإخراج ما دخل بين الأسنان من الطعام، فهو يشبه هذه النباتات برضاب محبوبته ورائحتها.

ويقول كثيّر عزة[٢]:

وَفاضَـــت دُموعُ العَينِ حَتّـــــى كَأَنَّمـــــــا بِـوادي الـقرى مِـن يابِـس الـثَـغرِ تُـكـحَـلُ

إِذا قُلتُ أَسلو غارَتِ العَينُ بِالبُكـــــــــــا غَـــــراءً وَمَدَّتهـــــا مَدامِـــعُ حُفَّـــلُ

فكأن عينه كحلت بثغر فهي تسـيل، والثغر: ضـرب من النبت فيه حرارة يلذع العين إذا أصـابها، والثغرة من خيار العشـب خضـراء تضـخم حتى تصـير كأنها زنبيل مكفأ مما يركبها من الورق والغصـنة، وفيها ملحة قليلة مع خضرتها، وزهرتها بيضاء، وهي تنبت في جلد الأرض، ولا تنبت في الرمل، والإبل تأكلها أكلًا شديدًا[٣]، واستعان الشاعر بالتشبيه التمثيلي في البيت الأول، وذلك لتوضيح الصورة.

ويتحدث مجنون ليلى عن بعض جوانب الطبيعة، فيقول[٤]:

أَإِن هَـتَـفَـت وَرقـاءُ في رَونَـقِ الضُـــحى عَـلـى فَـنَـنٍ غَـضِّ الـنَـبـاتِ مِـنَ الـرَنـدِ

فألفاظ الطبيعة مثل: النبات، والرند وهو نبات من شـجر البادية طيب الرائحة، والورقاء تهتف، توحي بصـفاء الطبيعة البكر في وادي القرى، "والشاعر يتخذ من الحمامة هنا رمزًا يعبر من خلاله عن شجنه"[٥].

وله أيضًا في التغزل بحبيبته ليلى[٦]:

أَنيـــري مَكـــانَ البَـدرِ إِن أَفَـــلَ البـــــدرُ وَقومي مَقـــــامَ الشَمـــسِ ما اِستَأخَرَ الفَـــجرُ

فَفيـــكِ مِـــنَ الشَمـــسِ المُنيـــرَةِ ضَـــوءُها وَلَيـــسَ لَهـــا مِنـــــكِ التَبَسُّـــمُ وَالثَغرُ

تَبَسَّـــمُ لَيلـــى عَـــن ثَنايـــا كَأَنَّهـــــا أَقـــــاحٍ بِجَرعـــــاءِ المَراضيـــــنِ أَو دُرُّ

---

(١) ديوان مجنون ليلى، ص٥١.

(٢) سمط اللآلي في شـرح أمالي القالي، المؤلف: أبو عبيد البكري الأندلسـي، تحقق: عبد العزيز الميمني، دار الكتب العلمية: بيروت، لبنان، ٢٢٣/١، وديوان كثير عزة، ص٢٥٤.

(٣) لسان العرب، مادة (ثغر).

(٤) ديوان مجنون ليلى، ص٩٠.

(٥) انظر، الغربة في الشعر الإسلامي والاموي، عبد القادر القط، دار النهضة العربية للطباعة والنشر: بيروت، (١٩٧٩م)، ص٦٣.

(٦) ديوان مجنون ليلى، ص١٠٠-١٠١.

فَمـــــا أُمُّ خِشفٍ بِالعَقـيقَيـــــنِ تَرعَـوي إِلى رَشَـــــأٍ طِفـــــلٍ مَفاصِلُـــــهُ خُـدرُ

بِمُخضَلَّـــةٍ جـــــادَ الرَبيـــــعُ زُهائَهـــا رَهائِـــــمَ وَسمِـــــيٍّ سَحائِبُـــــهُ غُـــزرُ

فليلى تقوم مقام القمر إذا غاب ومقام الشـمس إذا تأخر الفجرُ، فهي أخذت منهما الضـوء والنور، وزادت عليهما بتبســمها، فألفاظ الطبيعة لا يكاد يخلو بيت منها، مثل: القمر، وأقاح، والربيع، والرهائم وهي: الأمطار، والوسميّ وهو: أول مطر الربيع، ولا يخفى ما في الأبيات من تصـوير يمزج فيه الشـاعر بين عناصـر الطبيعة والمحبوبة، فمرة يشبهها بالبدر، ومرة يشبهها بالشمس، ويستعين في البيت الثالث بالتشبيه التمثيلي الذي يفيد التوضيح.

ومن دلالات الفضـــاء المكاني في وادي القرى لدى الشـــاعر العذري كثرة ورود الحيوان، التي تدل على النماء والخصب في المكان، فقد ذكروا (الظبية والريم والنعامة والورقاء والإبل والخيل والأسد والوحوش)[١]، يقول المجنون[٢]:

أَيا شِبـــــــــهَ لَيلى لا تُراعـــــي فَإِنَّنـــــي لَـكِ اليَـومَ مِـن بَـينِ الـوُحـوشِ صَـــــديـقُ

وَيا شِـبـــــــــهَ لَيلـــــى أَقصِـرِ الخَطوَ إِنَّني بِقُربِـــــــكِ إِن ساعَفتِنـــــي لَخَليـــــــــقُ

فالمجنون يخاطب الظبية باسـتعمال أداة النداء "أيا" التي تدل على البعد، ورامزًا لمحبوبته بالظبية التي تتشـابه مع محبوبته ليلى، وسبب هذين البيتين من القصيدة، بل سبب القصيدة كلها أن الشاعر "رأى مرة صيادًا أمسك ظبية وربطها بحبل، فقال له: أعطنيها وخذ قلوصًـــا من إبلي مكانها، فأعطاه إياها، فحلها من وثاقها، فذهبت تعدو هاربة وهو ينظر إليها جذلًا هانئ البال"[٣].

نجد عند جميل بثينة ذكر للخيل الأصيلة، التي يفتخر بامتلاك أجداده لها، فيقول[٤]:

أَبُـوكَ حُـبـابُ سَـــــارِقُ الضَـــيـفِ بُـردهُ وَجَـــدِيَ يـاحَـــجَّـــاجُ فـــارِسُ شَمَّـــرَا

فالصـلة بين الخيل والإنسـان قديمة جدًا، "فحيث وجدت حضـارة الإنسـان اكتشـفت إلى جانبها آثار حوافر الخيل، ومنذ اسـتطاع الإنسـان ترويضـها وإخضـاعها لسـيطرته حدث انقلاب كبير في نمط حياتهم"[٥]، وهذا يدلنا على الحضارة المرتبطة بالمكان في وادي القرى.

(١) أنظر، الحيوان في الشعر العربي، حسن مصطفى حسن، دار المعراج الدولية للنشر: الرياض، (١٩٩٨م)، ص١٢.

(٢) ديوان مجنون ليلى، ص١٦٢.

(٣) مخاطبة الطير في الشعر العربي حتى نهاية القرن الخامس الهجري، حمد بن علي بن حمد الفقيه الحسيني الهاشمي، ماجستير، كلية اللغة العربية، جامعة أم القرى، السعودية، عام (١٤٣٥هـ/٢٠١٤م)، ص٩٣.

(٤) شمر اسم فرس كان لجد جميل، ديوان جميل بثينة، ص١٦٤.

(٥) المكان في شعر جميل بثينة دراسة أدبية، ميساء علي الغبان، مكتبة الملك فهد، الرياض، عام (١٤٣٩هـ)، ص١٤٢.

المبحث الثاني: المكان المفضل عند شعراء وادي القرى

المطلب الأول: مكان ميلاد العلاقة بين الشاعر العذري ومحبوبته

ونقصد به المكان الرمزي الذي شهد بداية علاقة العشق بين الشاعر العذري ومحبوبته، ويحتل هذا المكان منزلة خاصة في قلبه؛ لأن صلة الشاعر بالمكان هي صلة روحية تعيش في وجدانه طوال حياته، لا ينساه أبدًا، فيعود إليه الفينة بعد الفينة، ويشعر بانجذاب قوي نحوه، فهو موطن طفولته وصباه وشبابه، فأول لقاء بين جميل وبثينة كان بوادي بغيض، وقد وصف الشاعر ذلك اللقاء، وصور ما حدث فيه لنا كأننا نرى ونسمع، يقول[١]:

وَأَوَّلُ ما قادَ المَوَدَّةَ بَينَنا ... بِوادي بَغيضٍ يا بُثَينَ سِبابُ

وَقُلنا لَها قَولًا فَجاءَت بِمِثلِهِ ... لِكُلِّ كَلامٍ يا بُثَينَ جَوابُ

ويروي لنا الأصفهاني هذا اللقاء فيقول: "فقد أقبل جميل يومًا بإبله، وأوردها واديًا يقال له: بغيض، فاضجع وأرسل إبله مصعدة، وأهل بثينة بذنب الوادي، فأقبلت بثينة وجارةٌ لها واردتين الماء، فمرتا على فصال لجميل بُرُوكٍ، فنفَّرتهُنْ بثينة، وهي إذ ذاك جويرية صغيرة، فسبها جميل، فافترت عليه، فملح إليه سبابها وأحبها"[٢].

وتمر الأيام بالشاعر ويُحرم من لقاء حبيبته، فيجد نفسه يشتاق لأن يقضي ولو ليلة في ذلك المكان الذي شهد ميلاد حبه، يقول جميل[٣]:

ألا ليت شعري هل أبيتنّ ليلة ... بوادي القرى إني اذن لسعيدُ

فوادي القرى هو صورة أكبر لوادي بغيض، فأصبح حلمًا يراود جميل طوال حياته، ويشتاق إليه كلما ابتعد عنه؛ لأن في وادي القرى "مراتع طفولته، ومرابع صباه، ومراح ذكرياته، ولأن فيه مغاني حبه هذا الآسر القاتل، إن في هوائه ومائه، في أرضه وسمائه، في مكانه وقراه شبع عاطفته، وإرواء ظمئه، فليكن إذن هذا الوادي قبلته التي يتجه إليها في حبه، وحماه الذي يريد أن يحتمي به"[٤].

نرى الحنين والشوق والدموع في عيني المجنون للمكان والذكريات، ويدعو للديار بالسقيا حتى تعود عامرة كما كانت، يقول[٥]:

أَحِنُّ إِذا رَأَيتُ جِمالَ قَومي ... وَأَبكي إِن سَمِعتُ لَها حَنينا

سَقى الغَيثُ المَجيدُ بِلادَ قَومي ... وَإِن خَلَتِ الدِيارُ وَإِن بَلينا

---

(١) ديوان جميل بثينة، ص٢٤.

(٢) الأغاني، للأصفهاني، مطبعة دار الكتب المصرية: القاهرة، عام (١٩٣٥م)، ٩٨/٨.

(٣) ديوان جميل بثينة، ص٦٥.

(٤) تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام من امرئ القيس إلى ابن أبي ربيعة، دكتور: شكري فيصل، دار العلم للملايين: ص٣٠٩-٣١٠.

(٥) ديوان مجنون ليلى، ص٢٢٠.

فقيس دائم الحنين لمنازل أهله التي شهدت مولده، ولا أبعد إن قلت مولد غرامه أيضًا، فديار الأهل رمز للأمن والأمان ليس للشاعر فقط بل لكل إنسان، فلا يعرف قيمة وطنه إلا من حرم منه، أو بعد عنه، والوطن هو الملاذ والملجأ والاستقرار.

أما قيس بن ذريح فيشعر أن لبنى حبيبته ما زالت شاخصة في ذلك الربع الذي شهد ميلاد حبهما، فلا يستطيع السلو عنها، يقول[١]:

كَيفَ السُلوُّ وَلا أَزالُ أَرى لَها ... رَبعًا كَحاشِيَةِ اليَماني المَخلَقِ

خَلَتِ الدِيارُ فَزُرتُها وَكَأَنَّني ... ذو حَيَّةٍ مِن سَمِّها لَم يَعرَقِ

إن قيسا في هذه الأبيات يعبر عن عدم استطاعته نسيان لبنى، فهو لا يزال يرى خيالها في المكان الذي نمى حبها في قلبه وعشقها وعهدها به دائمًا، وعاش معها فيه، وذاقا فيه رشفات الحب الطاهر، فليس بإمكانه محو ذلك الماضي الجميل من ذاكرته، فلا يستطيع هجر ذلك المكان، بل على العكس يحاول عقد مقارنة بين الماضي الذي يمثل له السعادة، والعيش الهانئ، وبين الحاضر الذي يمثل له الهدم والخراب والخلو من عشقه، بتلك المقارنة يحاول الهرب من الحاضر المؤلم؛ مستجيرًا "بلحظة من لحظات ماضيه، فيهرب بخياله من ذلك الحاضر متمنيًا لو ثبتت تلك اللحظة من لحظات السعادة"[٢]، ولكنه سرعان ما يعود للحاضر ذلك الحاضر المؤلم الذي فقد به الأحبة وأصبحت الديار خالية بعد لبنى.

فقد نجد الصورة تتكرر لدى الشاعر العذري في الحنين للطفولة والمكان المفضل، وهو مكان لميلاد العشق بين المحبين، فهذا الإحساس، لا يمكن إلا أن يكون صادقًا لأنه يحكي تجاربه في الوجد والصبابة بمحبوبته.

المطلب الثاني: مكان استحضار العلاقة (الأطلال)

إن الذكريات للشاعر العذري ومراتع الطفولة، رافد مهم في قاموسه لأنه يستقي منها طبيعة المكان وما تبقى من ذكرى للمحبوبة، لذلك فإن ظاهرة الوقوف على أطلال الحبيبة، والتغني به بوصفه مكانًا محببًا لدى الشاعر، يمثل سعادته بالماضي وحنينه إليه، "وأنها أيضًا محاولة للتخفيف عن النفس من وقع الحاضر حيث الفرقة والحرمان، والأمل الضائع بلقاء الأحبة أو رئيتهم والعجز عن إيقاف الزمن استمرارية الزمن الذي يقود الإنسان قسرًا إلى غير ما يرغب"[٣] ومن الأطلال المكررة في شعر الشاعر العذري (الرسوم والوشوم، وسطور الكتاب والخط القديم) وهي ما تدل على الحضارة القديمة في وادي القرى وما يملكه المكان من آثار ونقوش، يقول جميل بثينة واصفًا أطلال حبيبته[٤]:

(١) ديوان قيس بن ذريح، اعتنى به وشرحه: عبد الرحمن المصطاوي، ط٢، دار المعرفة: بيروت، لبنان، عام (١٤٢٥/٢٠٠٤م)، ص٩٩.

(٢) الرومانتيكية، دكتور: محمد غنيمي هلال، دار العودة: بيروت عام (١٩٧٣م)، ص٨٣-٨٤.

(٣) الزمن في شعر الشعراء العذريين في العصر الأموي، مجلة دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، ٢٩(٢)، ص٥٢٦.

(٤) ديوان جميل بثينة، ص١٨٧.

رَســـــــمِ دارٍ وَقَفـــتُ في طَلَلِـــــــه كُـدتُ أَقضـــي الغَـداةَ مِن جَلَلِـــــــه
مـــــوحِشًـــا ما تَـرى بِـــهِ أَحَـــدًا تَنتَسِـــجُ الريـــــحُ تُـــربَ مُعتَدِلِـــه
وَصَريعًـــــــا مِـــنَ الثُمـــامِ تَـــرى عارِمـــــاتِ المَـــــدَبِّ في أَسَلِـــــــه

فأثر الأطلال على نفسية الشاعر واضح، فهذه الأطلال وتلك الديار الدارسة أصابت الشاعر بالحزن، فبعد أن كانت عامرة بأهلها، تدب فيها الحركة، صارت موحشة مقفرة، لا ترى بها أحدًا، ودليل وحشتها ظهور نبات الثمام في المكان، وهذا يدل على طول الفترة التي مضت على المكان دون أن يعمره الإنسان، وقد غيرت الطبيعة المكان من خلال الريح، فهو مثل الإنسان الذي ينسج، وهذا الخيال جاء على سبيل الاستعارة المكنية، وذكر تلك الأماكن دليل على محبة الشاعر وإخلاصه لمحبوبته.

ويقول كثير عزة[1]:

أَفي رَســمِ أَطلالٍ بِشَــطبٍ فَمِرجـــــــمِ دَوارِسَ لَمّا اِستُنطِقَـــــت لَم تَكَـــــلَّمِ؟
تُكَفكِـــــفُ أَعـدادًا مِنَ العَينِ زُكِّبَـــــت سَـوانِيُهـــا ثُـــمَّ اِندَفَعـــــنَ بِأَسلُـــمِ

نلاحظ أن الشـاعر توجه إلى هذه الأطلال بالسـؤال، رغم أنها أطلال دارسـة لا تنطق، ولا أحد بها ليجيب النداء، لكنه يريد أن يسـتنطقها لتحكي له ما جرى، وتحدثه عن أيامه التي قضـاها في كنفها، وعن محبوبته التي جعلته يحب هذا المكان، ثم يبكي الشـاعر حزنًا وأسـفًا لما حل بتلك الديار، وهذا يدل على التفاعل بين الشـاعر وديار المحبوبة، حتى صار المكان إليه محبوبًا، وأصبح شخصًا يتحدث الشاعر إليه.

ويقول جميل بثينة[2]:

واســـتَـعـجـمـت آياتُهـا بِجـوابي أنضـــاء وشـــم أو سُـــطُور كـتـابِ

فهنا جميل يقرأ كتاب حياته، ويقف مع الذكريات التي هيجها المكان الذي أصبح طللًا كأنه وشم أو سطور كتاب، غيره الزمن وتقلباته.

فالشاعر العذري يقدر الطلل ويبجله لارتباطه بحياة الحبيبة، وغالبًا ما تكون زيارة الربع مرتبطة بالحبيبة، وعندما تهجره تنقطع زيارة الشاعر له، وربما يعود إليه الفينة بعد الفينة حنينًا لمواطن الذكريات، يقول جميل بثينة[3]:

أَهَـجـرُ هَـذا الـرَبـعَ أَم أَنـتَ زائِـــــرُه وَكَـيـفَ يُـزارُ الـرَبـعُ قَـد بانَ عـامِـرُه

فربع المحبوبة يزار كزيارته لأهله، ويهجر حين تغيب الحبيبة عنه، وقد اسـتخدم الشـاعر في الشـطر الأول من البيت فعلًا مبنيًّا للمعلوم، بيد أنه اسـتعان في الشـطر الثاني بفعل مبني للمجهول، وقد بان من كان يعمر هذه الديار ويحييها وجوده.

(١) ديوان كثير عزة، ص٣٠٤.
(٢) ديوان جميل بثينة ص٢٠.
(٣) ديوان جميل بثينة، ص١٠٠.

فالمكان يبقى حاضرًا في ذاكرة الشاعر يستحضره كلما وقف عليه، بعد أن غابت عنه الحياة، يقول جميل بثينة[١]:

أَمِـــــن مَنزِلٍ قَفــرٍ تَعَفَّـــــت رُسومَـــــهُ شَمَـــــــالٌ تُغاديهِ وَنَكبـــــاءُ حَرجَـــــفُ
فَأَصبَـــــــحَ قَفــــرًا بَعدَما كـــــانَ آهِـــلًا وَجُمـــــــلُ المُنى تَشتـــــــو بِهِ وَتُصَيِّـــفُ

إن المكان العافي هنا قد أصبح جوهر الذات الشاعرة في الحركة والإحساس، فسكونه واقفراره حركا كيان الشاعر الداخلي، ودفعاه إلى التذكر لجلب ظلال تلك الحياة الألفة منه.

وهؤلاء الشعراء العذريين كثيرًا ما وقفوا على ديار الحبيبة يبكون ويستبكون، ويدعون لتلك المنازل بالسقيا، فهذا مجنون ليلى يتذكر ديار حبيبته ويدعو لها بالسقيا وهو في أشد حالات عذابه ومرضه، يقول[٢]:

سَـــقى اللهُ أَطلالًا بِناحِيَـــــةِ الحِمـــــى وَإِن كُـنَّ قَـد أَبـدَيـنَ لِـلـنـاسِ مـا بِـيـا
مَنـازِلُ لَو مَرَّت عَلَيهـــــا جَنـازَتـــي لَـقـالَ الصَـــدى يا حـامِلَـيَّ اِنـزِلا بِـيـا
فَـأُشـــهِـدُ بِالـرَحمَـنِ مَـن كـانَ مُـؤمِـنًـا وَمَـن كـانَ يَـرجـو اللهَ فَـهـوَ دَعـا لِـيـا

تتحرك الأبيات بين ثنائية الماضي والحاضر، وقد تجسدت صورة الماضي في لفظة الأطلال، أما الحاضر فقد شكل العودة إلى تلك الأطلال والدعاء لها بالسقيا، "والملاحظ أن الشاعر قد حدد موقع تلك الأطلال، أي أنها لم تكن أطلالًا عادية، بل كان لها في نفسه ذكرى خاصة، وبهذا وضع إطارًا ماديًّا للصور التي أراد أن ينثرها، ولتلك المواقع التي أراد أن يتحدث عنها، وللعواطف التي يريدها أن تنبجس من خلال هذه المواقع، وأن تنعكس على هذه المشـــاهد"[٣]، ولعله بذلك أراد التخفيف مما أصـــابه من ألم، فهو برجوعه إلى تلك الأطلال وتحديد موقعها استعاد ذكرياته الجميلة؛ ليعوض بهذا الماضي ما صابه من ألم وثقل في حاضره، ووادي القرى وجباله الشاهقة تردد صدى هذا العشق.

وفي مقطوعة أخرى تمثل بثينة بذكرياتها الجميلة في تلك الدار القديمة التي عهدها بها، يقول[٤]:

على الدَّارِ التي لبســتْ بِلاهـــــــــــا قِفـــَـــا، يا صاحبـــــيّ، فسَائِلاهـــــا
ومـــــــا يبكيك من عرصـــــــات دار تقـــــــادم عهدهـــا وبـــدا بلاهـــــا

إن جميل صـور تلك الدار التي طلب من صـاحبيه الوقوف عليها، بأنها مهجورة قد بدت عليها آثار التهدم والبلى، وهذا متجسد في قوله: (لبستْ)، فهذه الكلمة كان لها دلالة عميقة أبرزت بشكل واضح قدم هذه الدار وهجر أصحابها لها، ومن هنا يأتي تعجب صاحبيه على طلبه بالوقوف على تلك الديار المهجورة[٥]، ومسائلتها، ولماذا يبكي عليها، فيوضح لهم ذلك بوضع علاقة بين الديار وبين أحبته، فتلك الديار كانت الحافز القوي الذي

(١) ديوان جميل بثينة، ص١٣٢-١٣٣.
(٢) ديوان مجنون ليلى، ص٢٣٤.
(٣) تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام من امرئ القيس إلى ابن أبي ربيعة، دكتور: شكري فيصل، ص٣٠، بتصرف.
(٤) ديوان جميل بثينة، ص٢١٧.
(٥)انظر، المكان عند شعراء الغزل العذري في العصر الأموي، بشائر أمير عبد السادة الفتلاوي، ص٥٧.

حرك مشاعر الشاعر ونقله إلى حيث ماضيه، فتمثلت له صورة تلك الديار وبها أحبته الذين عهدهم بها، فهو يبكي لشدة ولوع نفسه بذكر أحبيته وحنينه إلى أمكنتهم.

ويقف كثير عزة على ربع الحبيبة، فتنتقل به الذكرى إلى الزمن الماضي، زمن العيش الرغيد بجوار الحبيبة، فيذكر لنا جزء من طبيعة المكان في وادي القرى بأنها صحراء مقفرة خالية لا نبات فيها، يقول(١):

خَليليَّ عوجـــا مِنكُما ساعَةً مَعـــي ... عَلى الرَبعِ نَقـــضِ حاجَـــةً وَنُـــوَدِّعُ

وَلا تَعجَـلانـــي أَن أُلِـــمَّ بِدمنـــةٍ ... لِعَـــزَّةَ لاحَـــت لي بِبَيداءَ بَلقَـــعِ

وَقولا لِقَلبٍ قَد سَـلا راجِعِ الهَـــوى ... وَلِـلـعَـينِ أَذري مِـن دُمـوعِـكِ أَو دَعـي

فَلا عَيـشَ إِلّا مِـثـلُ عَـيـشٍ مَضـى لَـنـا ... مَصيفًـــا أَقَمنـــا فيهِ مِن بَـعِد مَربَـعِ

لقد حاول كثير الهروب من حاضره الذي يحرمه من حبيبته، فيحن إلى مكان ميلاد العلاقة ليستحضر ما كان بينهما، ولن يقدم له ذلك إلا ربع عزة ليهرب إليه، فيتحول المكان إلى رمز يثير في نفسه الذكريات، وليس مجرد مساحة من الأرض، وقد وظف الشاعر لغرضه هذا أسلوب الحوار المعبّر عنه بأداة النداء المحذوفة، وكذلك بأفعال الأمر (عوجا، قولا)، والنهي (لا تَعجَلانـي)، فهو يحاول أن يضع المتلقي معه في المشهد؛ ليعيش معه التجربة بكل لحظاتها، فبعد أن نزل بتلك الديار طلب من صاحبيه الوقوف معه بها؛ كي يتأملها، ويعطي لخياله فرصة للانتقال من الحاضر التعيس إلى الماضي السعيد، وبعد أن استقرت نفسه، واتضحت له الصورة كرر الطلب من رفيقيه أن يقولا لقلبه الذي سلا عن حبه أن يعود إليه، ولعينه أن تجود بدموعها الغزيرة، أو لتجمد عن البكاء، ولكن الشاعر يصل إلى أقصى حالات اليأس والمرارة، فقد أدرك أن الماضي لن يعود، وإنما الإنسان يحاول أن يحيي الماضي بذكرياته الجميلة.

المطلب الثالث: المكان الحلم – الخيال (المتمنى)

هو ذلك المكان الذي يبني الشاعر العذري أسواره من وحي خياله، ولكن هذا لا يعني أن الشاعر ينقطع بهذا المكان عن الواقع، فهو يحاول بشكل أو بآخر أن يضع خيوطًا تربط بين المكانين؛ لأنه لم يبنِ هذا المكان إلا لحاجته إلى ما يشابهه على أرض الواقع، فالشاعر يحاول من طريق الخيال التعويض بأنه يعيش وطنَ داخليًّا رسم حدوده في مخيلته، ليعوض به غياب الواقع(٢)، فهذا المكان يؤدي دور المنقذ الذي يعوض به الشاعر عما حرمه الواقع منه(٣).

ومن ثم نستطيع أن نقول: إن المكان الحلم هو مكان يمتزج فيه" الخيال الرومانسي بالملاحظة الطبيعية، والتجربة الشخصية بالتكوين النفسي والاجتماعي"(٤).

---

(١) ديوان كثير عزة، ص٤١٠.

(٢) جماليات المكان، اعتدال عثمان، مجلة أقلام، بغداد، ع٢، عام (١٩٨٦م)، ص٧٦.

(٣) الموضوعية البنيوية، دراسة في شعر السياب، دكتور: عبد الكريم حسن، ط٢، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر: عام ١٩٨٣م، ص٧٣.

(٤) الحكاية الجديدة، محمود مخيمر، جريدة الجمهورية، بغداد، بتاريخ: (١٩٨٧/٨/٢٧م).

ويعرف "كولردج" الخيال قائلاً: "إنه القوة السحرية التي توافق بين صفات متنافرة، وتظهر أشياء قديمة ومألوفة بمظهر الجدة والنضارة، أي أنه اجتماع حالة غير عادية من الانفعال بحالة غير عادية من النظام"(١).

من هذا المنطلق فإننا نجد الشعراء العذريين في العهد الأموي هربوا من الواقع الذي حرمهم من المحبوبة، ولجئوا إلى الحلم والخيال؛ لعلهم يجدون العزاء فيه، أو يحاولون تغيير ما يجدونه منافيًا لحياتهم وسعادتهم.

فقيس لبنى يحلم بلقيا حبيبته بواد خالٍ من الأنيس، يقول(٢):

لَعَـــــلَّ لُبَينـى أَن يُحَـــمَّ لِقـائُهـــا ... بِبَعـــضِ البِـــلادِ إِنَّ ما حُـــمَّ واقِـــعُ

بِجَـــــزعٍ مِنَ الوادي خَلا عَن أَنيسِـــهِ ... عَفـــا وَتَخَطَّتـــهُ العُيـــونُ الخَـــوادِعُ

وَلَمّـــا بَدا مِنهـــا الفُـــراقُ كَمـــا بَـدا ... بِظَهرِ السَـفـــا الصَـلدِ الشُـقوقِ الشَـوائِعُ

أول ما نلاحظه على تلك المقطوعة هو حالة اللوعة والشوق في لقاء حبيبته، فهو لم يحدد مكان اللقاء، فلهفته للقاء لبنى أكبر من رغبته في تحديد المكان، بيد أن نفس المحب بدأت تهدأ شيئًا فشيئًا، فبدأ يحدد موضع اللقاء الذي لقياها فيه – وهو تحديد في مخيلته لا على وجه الحقيقة ، فنلاحظ أنه اختار في الطبيعة ذلك المكان الذي تربطه به علاقة قوية وجميلة، وهو الذي يعيد إليه العفوية والحرية المفتقد إليها(٣)، فضلًا عن ذلك فصورة الوادي توحي بالخراب والدمار، فهو مكان قد تركه الأنيس وتخطته تلك العيون التي كانت لا تهجع بقربه، وقد يوحي هذا المكان للمستمع أو القارئ بعدم الاطمئنان والضيق إلا أن هذه الصورة تتبدل للشاعر العذري، فهذا المكان يمثل في نظر الشاعر "مورد العطاء وحيز الانفعال"(٤)، ويمثل له العزلة والانفراد التي ينشدها الشعراء العذريون، وبعد أن اختار موضع اللقاء أخذ بتأنيب نفسه ولومها، فلا سبيل إلى لقيا حبيبته بعدما بان الفراق وانصدع الود الذي كان بينهما، بل إن هذا الفراق قد اتضح واتسع مداه حتى أصبح مثل الشقوق في ظهر الصخرة الصماء، وهذا يدل على عمق المأساة التي يشعر بها قيس، فيستسلم الشاعر لقدره المكتوب، فكل محب لا بد أن يفجع بحبيبته، فكأنه يريد أن يخفف ما في نفسه من آلام الحرمان التي يشعر بها، وهذا حال العذريين دائمًا حينما لا يجدون سبيلًا للعيش بسلام مع المحب.

أما جميل بثينة فيحلم بخيالها قد طرقه على البعد، فيهيج في نفسه الشوق والحنين إليها، يقول(٥):

أَلَـــمَّ خَيـــالٌ مِـــن بُثَينَـــةَ طـــارِقُ ... عَلى النَـــأيِ مُشتـــاقٌ إِلَيَّ وَشائِـــقُ

سَـــــرَت مِن تِلاعِ الحِجرِ حَتّى تَخَلَّصَت ... إِلَـيَّ وَدونـــي الأَشعَـــرونَ وَغافِـــقُ

(١) في النقد الأدبي دراسة وتطبيق، نشأت، كمال، ط١، النجف: مطبعة النعمان، (١٩٧٠م)، ص٢٨.

(٢) ديوان قيس بن ذريح، ص٨٧.

(٣) حركية الإبداع، دراسات في الأدب العربي الحديث، خالدة سعيد، ط٢، دار العودة: بيروت، عام (١٩٨٢م)، ص٣٢، بتصرف.

(٤) الاتجاه النفسي في نقد الشعر، دكتور: عبد القادر فيدوح، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، عام (١٩٩٢م)، ص٢٥٧.

(٥) ديوان جميل، ص١٤٣، الطارق، الزائر، النأي، البعد، شائق، مثير للشوق، سرت، مشت ليلًا، التلاع: جمع تلعة وهي ما ارتفع من الأرض، الحجر: أرض ثمود في وادي القرى، الأشعرون، قبيلة.

لقد صـــور جميل ذلك اللقاء المتخيل من خلال جعل النص ينبض بالحركة والحيوية، مما يجعل المتلقي يحيا مع جميل تلك اللحظات الجميلة، وذلك في قوله (ســـرت) دل على أن حديثه وجّه نحو بثينة وليس خيالها، فهي التي سارت إليه من (تِلاعِ الحِجرِ) في وادي القرى، واستطاعت أن تتخلص من عيون الرقباء لتصل إليه، كما نلاحظ أن الشـــاعر ذكر الأمكنة التي اتجهت منها بثينة إلا أنه لم يذكر مكان اللقاء الحلمي الذي التقى فيه مع حبيبته بل عبّر عنه بألفاظ توحي إليه، منها: (أَلَمَّ – تَخَلَّصَت إِلَيَّ).

ويحاول مجنون ليلى النوم في غير حينه لعله يحظى بلقائها، يقول(١):

وإني لأســـتـغشـــي ومـا بي نـعسـة ... لـعـل خـيـالًا مـنـك يـلـقـى خـيـالـيـا

ويقول كثير عزة في نفس المعنى(٢):

وَإِنِّي لَأَســتَغشــي وَمـا بِيَ نَعسَـــةٌ ... لَعَـــلَّ لِقـــاها في المَنامِ يَكـــونُ

فإذا لم يســتطع التمكن من لقائها في الواقع، فالحلم كفيل أن يحقق له ما يبغي، فهو يحاول النوم كي يلتقي خياله بخيال حبيبته في مكان حلمي لا يمنعه أحد من رؤيتها فيه، فهو "لقاء واجتماع لا يشـــعر الرقباء بهما، ولا يخشى منع منهما ولا اطلاع عليهما"(٣)، وهذا خيال يجلب له السعادة.

وتجدر الإشـــارة إلى أن الشـــاعر العذري ربما تمنى الحياة مع حبيبته حتى ولو في مكان يفقد شـــروط الحياة للإنســـان؛ لأنه يوفر له فرصـــة الأمان مع المحبوبة، وهذا مجنون ليلى يحلم أن يكون وحبيبته غزالين أو حمامتين أو حوتين كي يمارسا أفعالهما بحرية، وأن يكون لهما مكان آمن يأويان إليه، يقول(٤):

ألاَ لَيْتَنَـــا كُنَّـــا غَـــزَالَيْـــنِ نَرْتَعِـــي ... رياضًـــا الحـوزان فـي بلـد قفـــــر

ألا ليتنـــا كَنَّـــــــــا حَمَامَـــيْ مَفَـــازَةٍ ... نطِيـــرُ ونَـــأوِي بِالعَشِيّ إلى وَكْـــــــرِ

إلا لـيـتـنـا حُـوتَانِ فِي الـبَـحْـرِ نَـرتَـمِـي ... إذا نَحْنُ أمْسَـيْنَا نُلَجِّـــجُ فِي الْبَحْـــــرِ

في هذه الصـورة الشـعرية يبين قيس حاجته في إيجاد مكان آمن يأوي إليه مع حبيبته، فهو يتمنى أن يخرج من نطاق البشـرية إلى نطاق الحيوانية، حيث لا واشٍ يحرمه من حبه، وهو بهذا الحلم المتمنى والخيالي يصـور لنا الأسـى والحزن الذي يشـعر بهما في عدم قدرته على العيش بسـلام مع من يحب، فهو يصـرح في هذه الأبيات عن حالة الحرمان التي يشـــعر بها، فيتمنى أن يكون حرًّا مثل الغزال، والحمامة، والحوت، ويريد العيش في ســـلام في أماكن متعددة، في رياض أو مفازة أو بحر أو في الســـماء أو وكر، وبما أنه محروم من تلك المزية فليعش في عالم الخيال أو الحلم أو تمني المستحيل.

---

(١) ديوان مجنون ليلى، ص٢٠٦.

(٢) ديوان كثير عزة، ص٤٦.

(٣) طيف الخيال، الشـريف المرتضـي، تحقيق: حسـن كامل الصـرفي، مراجعة إبراهيم الإبياري، ط١، دار إحياء الكتب العربية: عام (١٩٦٢م)، ص٥.

(٤) ديوان مجنون ليلى، ص١٢٦.

فليس غريبًا على الشعراء العذريين هذا الحلم أو تلكم الأمنية الغريبة، فالحياة مع من يحبون باتت مستحيلة، لذا نجدهم ينشدون ذلك في الحلم، فكثير عزة يعبر بشكل صادق عن موقف مشابه لموقف قيس، بل ربما شذ في أمنيته، وذلك في قوله(١):

ألا لَيتَنا يا عَزّ كُنّا لِذي غِنىً ... بِعَيرينِ نَرعى في الخَلاءِ وَنَعزُبُ

يُطَرِدُنا الرُعيانُ عَن كُلِّ تِلعَةٍ ... وَيَمنَعُ مِنا أَن نُرى فِيهِ نَشرَبُ

فهو يتمنى أن يجتمع الشمل بينه وبين عزة، وأن يكف الناس عن ملاحقته وإفساد ما بينهما (٢)، فإذا تحققت هذه الأمنية فلا يهم بعد ذلك صورتها التي سيلقاها عليها، بل لا تهمه صورة هذا اللقاء ما دام سيحدث، فليحدث على أي شكل من أشكال الحياة(٣)، فاختار مكان الحلم الخلاء حيث لا أحد يضايقهما، أو يحرمهما من بعض، فضلًا عن أن الخلاء يمثل العزلة التي ينشدها الشعراء العذريون، فالمعاناة النفسية أدت إلى حدوث غربة نفسية لديهم، وهذه الغربة ولدت لديهم الرغبة في العزلة والابتعاد عن الناس(٤).

وهذا النص يتسم بالحيوية والحركة، وجمال الصورة الشعرية للمكان فالشاعر يتمنى أمنية طريفة بأن يكونا جملين أصابهما الجرب تطردهم الرعيان في أرض خلاء عن كل تلعة وعن كل مكان للمياه، هذا العذاب عنده أمنية مرغوبة مادام اللقاء مع محبوبته حاصل، فالجمل الفعلية، مثل: نرعى، نعزب، يرنا، يقل، تعدي، وردنا، صاح، ننفك، نضرب) هي ما جعلت النص يتسم بالحيوية والحركة.

وفي نفس الصدد يتمنى جميل أن يعيش مع حبيبته بعيدًا عن الناس حيث لا رقباء، ولا يمتلك شيئًا من حطام الدنيا، يقول(٥):

تَمَنَّيْتُ مِن حُبِّي بُثَينَةَ أَنَّنا ... على رَمَثٍ في البحرِ ليسَ لَنَا وَفْرُ

فجميل يتمنى أن يعيش بسلام مع بثينة في مكان بعيد في البحر على قارب خشبي، "فالعزلة بعيدًا عن الناس مطلب يتمناه العذريون، فهم يتوقون للعزلة ففيها سعادتهم وخلاصهم من هذا العالم الموحش"(٦)، فالشاعر يحلم بالبساطة في العيش مع المحبوبة بلا مال ولا ثروة.

لقد أظهرت لنا النماذج السابقة أن المكان الحلم الذي يتمناه الشاعر العذري متعدد، فقد يكون: بلدًا قفرًا أو مفازة أو بحرًا أو خلاء، فهو يلجأ إلى عالم الخيال المحض الذي يتعذر على الإنسان العادي العيش فيه، من أجل لحظة وصال مع محبوبته.

---

(١) ديوان كثير عزة، ص٤٢.

(٢) التفسير النفسي للأدب، عز الدين إسماعيل، دار المعارف: القاهرة، (١٩٦٣م)، ص٩١.

(٣) الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري، دكتور علي البطل، ط٢، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع: عام (١٤٠١هـ/١٩٨١م)، ص١٠٨، بتصرف.

(٤) المكان عند شعراء العزل العذري في العصر الأموي، بشائر أمير الفتلاوي، ص٧٧.

(٥) ديوان مجنون ليلى، ص٩٣، الرمث: طَوْف، عامَة، وهو خشب يُشَدّ بعضُه إلى بعض ويُرَكّب في البحر. الوفر: الثروة.

(٦) المكان عند شعراء العزل العذري في العصر الأموي، بشائر أمير الفتلاوي، ص٧٨.

الخاتمة:

من خلال دراستنا لوادي القرى عند العذريين في العصر الأموي، نلاحظ ما يلي:

١- تنوع الأماكن لدى الشاعر العذري في وادي القرى، بما يتناسب مع جمال المكان في تلك البقعة الساحرة، فوصفوا لنا جمال الطبيعة بأنواعها المختلفة كالجبال، والهضاب، والوديان، والسهول، والآبار، والمياه العذبة، والأمطار، والعيون، والطرق، والحيوانات والطيور التي تعيش في هذا المكان، وذكروا لنا معظم هذه الأماكن بأسمائها.

٢- اتجه الشاعر العذري إلى الطبيعة في وادي القرى (الجبال، الوديان، الأرض، أماكن المياه) يرتمي في أحضانها لتعوضه عن خسارته في فقد محبوبته وتكسبه الثبات والأمل في مواجهة الحياة.

٣- تميز شعر شعراء وادي القرى وبخاصة العذري منه بالتلقائية ووضوح الألفاظ، وسهولة اللغة، وجمال التصوير، وروعة موسيقاه، وما صحب ذلك من قوة العاطفة، وصدق الشعور، ولا يخفى ما يشتمل عليه شعرهم من الصور التشبيهية والأساليب المجازية، والاستعارات المكنية.

٤- لقد اكتسب المكان لدى الشعراء العذريين أهميته ومنزلته في العصر الأموي من أهمية ومنزلة من يسكن فيه، فالمكان الحبيب لا يفارق ذاكرة الشاعر العذري، حيث شغل حيزًا واسعًا في شعرهم حتى صار عنصرًا فاعلًا.

٥- إن لأطلال المحبوبة عند الشاعر العذري في وادي القرى أثرًا واضحًا في نفس الشاعر كلما مر به، أو عاد إليه، أو تذكر مرابع وملاعب صباه التي كان يختلف إليها ويتردد عليها، ويقابل صاحبته في جوانبها، فالأطلال في وادي القرى مازالت حيه كالنقوش والآثار في جبالها، ومساكن الأمم السابقة كقوم صالح عليه السلام تشهد على ما بقي من أطلال.

٦- استطاع الشاعر العذري أن يطوع المكان وادي القرى تبعًا لحالته النفسية، فجعل المكان محراب تأمل في تقلبات الحياة وقسوتها وآلامها، وفناء أهلها.

٧- إن للمكان الحلمي المتمنى لدى الشاعر العذري دورًا كبيرًا في الهروب من الواقع المؤلم الذي عاشه في هذه الحياة، فالحلم والخيال يحقق له السعادة التي يود تحقيقها، وإن كان تحقيقًا وهميًا.

٨- الشاعر العذري ربما تمنى الحياة مع حبيبته حتى ولو في مكان يفتقد لشروط الحياة للإنسان (بلدا قفرا أو مفازة أو بحرا أو خلاء)؛ لأنه يوفر له فرصة الأمان مع المحبوبة بعيدًا عن الحاسدين والرقباء، وربما بالغ في خياله ليتمنى أن يكونا غزالين أو حمامتين أو بعيرين أو حوتين في البحر من أجل البقاء مع محبوبته.

٩- أكثر الشاعر العذري من أداة التمني (ليت) واستعمال الاستفهام الإنكاري في أشعاره، ليعبر عن أثر الفقد وأمنيته المستحيلة، في لقاء من يحب.

١٠- أبدع الشاعر العذري في توظيف أسلوب الحوار في شعره، ليكشف عن صدق شعوره وعن آلامه وأحزانه للمتلقي.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم.

الأغاني. للأصفهاني. مطبعة دار الكتب المصرية: القاهرة، عام (١٩٣٥م).

التعليقات والنوادر. لأبي علي هارون بن زكريا الهَجَري. تحقيق ودراسة ومختارات: حمد الجاسر، ط١، اليمامة، الرياض، عام (١٤١٣هـ/١٩٩٢م).

حماسة الخالديين. المؤلف: الخالديان أبو بكر محمد بن هاشم الخالدي، وأبو عثمان سعيد بن هاشم الخالدي. المحقق: الدكتور محمد علي دقة، ط١، وزارة الثقافة: الجمهورية العربية السورية، عام (١٩٩٥م).

ديوان جميل. شعر الحب العذري. جمع وتحقيق وشرح: دكتور حسين نصار، مكتبة مصر، دار مصر للطباعة.

ديوان عروة بن حزام. تحقيق: دكتور إبراهيم السامرائي، وأحمد مطلوب، *مجلة كلية الآداب*، جامعة بغداد، المجلد(٤)، حزيران (١٩٦١م).

ديوان قيس بن ذريح. اعتنى به وشرحه: عبد الرحمن المصطاوي، ط٢، دار المعرفة: بيروت، لبنان، عام (١٤٢٥/٢٠٠٤م).

ديوان كثير عزة. جمعه وشرحه دكتور: إحسان عباس، ط١، دار الثقافة: بيروت، لبنان، عام (١٣٩١هـ/١٩٧١م).

ديوان مجنون ليلى. جمع وتحقيق عبد الستار أحمد فراج، ط١، مكتبة مصر: عام (١٩٩٧م).

سمط اللآلي في شرح أمالي القالي. المؤلف: أبو عبيد البكري الأندلسي. تحقق: عبد العزيز الميمني، ط١، دار الكتب العلمية: بيروت، لبنان.

سنن الترمذي. تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر، ومحمد فؤاد عبد الباقي، وإبراهيم عطوة عوض، ط٢، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي: مصر، (١٣٩٥هـ /١٩٧٥م).

لسان العرب. ابن منظور الأنصاري. ط٣، دار صادر: بيروت، (١٤١٤هـ).

المسالك والممالك. للإصطخري أو مسالك الممالك. ط١، دار صادر: بيروت، عام (٢٠٠٤م).

المسالك والممالك. لأبي القاسم ابن خُرداذبه. تحقيق: دكتور جمال طلبة، ط١، دار الكتب العلمية: بيروت، ١٩٨٩م.

مصارع العشاق. لابن السراج. تحقيق: محمد حسن إسماعيل، ط١، دار الكتب العلمية: بيروت، ١٩٩٨م.

معجم البلدان. ياقوت الحموي. ط١، دار صادر، بيروت، عام (١٣٩٧هـ/١٩٧٧م).

الوافي بالوفيات. لصفدي. المحقق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، ط١، دار إحياء التراث: بيروت، عام(١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م).

الاتجاه النفسي في نقد الشعر. دكتور: عبد القادر فيدوح، منشورات اتحاد الكتاب العرب: دمشق، عام (١٩٩٢م).

الأدب في شمال غرب الجزيرة العربية قديمًا وحديثًا. ط٢، مؤسسة الانتشار العربي: بيروت، عام (٢٠١٦م).

بين الأدب والموسيقى. أسعد محمد علي. دراسة مقارنة في الفن الروائي، ط١، أفاق عربية: بغداد، (١٩٨٥م).

تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام من امرئ القيس إلى ابن أبي ربيعة. دكتور شكري فيصل، ط٤، دار العلم للملايين: بيروت، ١٩٥٩م.

التفسير النفسي للأدب. عز الدين إسماعيل. ط١، دار المعارف: القاهرة، (١٩٦٣م).

جماليات المكان. اعتدال عثمان. *مجلة أقلام*، بغداد، المجلد(٢)، عام (١٩٨٦م).

جماليات المكان. غاستون باشلار، ترجمة غالب هلسا، ط٢، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع: بيروت، لبنان، عام (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م).

جماليات المكان. جماعة من الباحثين. ط١، دار قرطبة، الدار البيضاء: عام (١٩٨٨م).

حركية الإبداع. دراسات في الأدب العربي الحديث، خالدة سعيد، ط٢، دار العودة: بيروت، عام (١٩٨٢م).

الحكاية الجديدة. محمود مخيمر. جريدة الجمهورية: بغداد، بتاريخ: (٢٧/ ٨/ ١٩٨٧م).

الحيوان في الشعر العربي. حسن مصطفى حسن. ط١، دار المعراج الدولية للنشر: الرياض، (١٩٩٨م).

رسوم العشاق في وادي القرى. محمد سعيد المرواني. ط١، دار تكوين: جدة، عام (١٤٤٤هـ).

الرومانتيكية. دكتور: محمد غنيمي هلال، ط١، دار العودة: بيروت، عام (١٩٧٣م).

الشعر العذري في ضوء النقد العربي الحديث. محمد بلوحي. دار رسلان للطباعة والنشر والتوزيع: عام (٢٠١٥م).

الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري. دكتور علي البطل. ط٢، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع: بيروت، عام (١٤٠١هـ/١٩٨١م).

طيف الخيال. الشريف المرتضى. تحقيق: حسن كامل الصرفي، مراجعة إبراهيم الإبياري، ط١، دار إحياء الكتب العربية: عام (١٩٦٢م).

الغربة في الشعر الإسلامي والاموي. عبد القادر القط. دار النهضة العربية للطباعة والنشر: بيروت، (١٩٧٩م).

في النقد الأدبي دراسة وتطبيق. نشأت، كمال. ط١، مطبعة النعمان: النجف، (١٩٧٠م).

المكان في شعر الشريف الرضي. دراسة فنية، زينب عبد الكريم حمزة الخفاجي. رسالة ماجستير، كلية التربية للبنات، جامعة بغداد، عام (٢٠٠٢م).

المكان في شعر جميل بثينه دراسة أدبية. ميساء بنت علي الغبان. ط١، مكتبة الملك فهد: الرياض، عام (١٤٣٩هـ).

الموضوعية البنيوية. دراسة في شعر السياب، دكتور: عبد الكريم حسن. ط١، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر: عام (١٩٨٣م).

وادي القرى من الجاهلية إلى العصر النبوي. دويدار، مصطفى. ط١، دار الوفاء للطباعة والنشر: الإسكندرية (٢٠٢٤م).

الإنسان والمكان. دكتور ليث كريم حمد. *مجلة ديالي*، العراق، المجلد(٤٠)، عام (٢٠٠٩م).

تاريخ وادي القرى في صدر الإسلام. البلوي، حمد منصور أبو شامة. رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية عمان، (٢٠١٠م).

دلالة المكان في الشعر الأموي "شعر قيس بن الملوح أنموذجًا" . محمد فتحي الأعصر. الكوفة، *مجلة فصلية محكمة*، المجلد(١١) عام (٢٠١٧م).

الزمن في شعر الشعراء العذريين في العصر الأموي. *مجلة دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية*، ٢٩(٢).

شعرية المكان في شعر الأخطل. دكتورة: نهى محمد عمر. *مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية*، العراق، ١٦(١٠)، تشرين الأول عام (٢٠٠٩م).

ظاهرة التكرار في شعر الغزل العذري. لما حلوش. رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة اليرموك، ٢٠٠٦م.

مخاطبة الطير في الشعر العربي حتى نهاية القرن الخامس الهجري. حمد بن علي بن حمد الفقيه الحسيني الهاشمي. ماجستير، كلية اللغة العربية، جامعة أم القرى، السعودية، عام (١٤٣٥هـ/٢٠١٤م).

المكان عند العذريين في العصر الأموي. حامد المشيخي. رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة اليرموك، الأردن، عام (٢٠٠٧م).

المكان عند شعراء الغزل العذري في العصر الأموي. بشائر أمير عبد السادة الفتلاوي. ماجستير في آداب اللغة العربية، كلية التربية، جامعة بابل، عام (١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م).

المكان في الشعر الأموي. جميل بدوي حمد الزهيري. رسالة دكتوراه، كلية التربية، الجامعة المستنصرية، عام (١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م).

المكان والزمان عند الشعراء العذريين. مجنون ليلى؛ جميل بثينة. كثير غزة، نموذجًا، ودناني بوداد، رسالة ماجستير، معهد اللغة العربية والأدب العربي، جامعة وهران، عام (١٩٩٣م).

الموقع الإلكتروني للهيئة الملكية لمحافظة العلا، نبذة عن العلا.

وكالة الأنباء السعودية، ١٢ جمادى الآخرة (١٤٤٣هـ).